

بدائع البديع في ظلال آيات من الذكر الحكيم

الدكتور صالح محمد الزهراني

قسم البلاغة والنقد - كلية اللغة العربية

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله الأمين أما بعد .
فإن هذا البحث يهدف إلى استجلاء الجمال البديعي لطائفة من الفنون
البلاغية البديعية ، أو المحسنات البديعية في ظلال آيات من الذكر الحكيم .
وقد كان الدافع إلى هذا البحث رغبة كثير من الطلاب في بيان وجه
الجمال البديعي لهذه المحسنات وبالذات في الشواهد القرآنية .
وتلك المحسنات التي يتناولها البحث هي :

براعة الاستهلال ، وحسن الابتداء ، وحسن الانتقال ، وحسن الختام ،
والطباق ، والمقابلة ، والتجريد ، والمشاكلة ، ومراعاة النظر ، والتقسيم ،
والجناس ، والتصدير ، والسجع ، والفاصلة القرآنية ، والموازنة ، والمماثلة .
والاقتصار على هذه المحسنات دون غيرها من فنون البديع يعود إلى أنها
من أشهر المحسنات التي ترد في القرآن ، وهي التي تهتم بها الدراسات
الجامعية في مناهجها .

فما الجمال البديعي لهذه المحسنات ؟ وما أثرها في أداء المعنى ؟

هذا ما سيكشف عنه البحث في الصفحات الآتية :

حسن الابتداء وبراعة الاستهلال :

حسن الابتداء عند البلاغيين يكون باللفظ العذب ، وبالسبك الحسن ،
وبالمعنى الصحيح .

ويريدون باللفظ العذب ؛ اللفظ السليم من التنافر ، وبالسبك الحسن ،
السبك السليم من التعقيد ، وبالمعنى الصحيح ؛ المعنى المطابق لمقتضى الحال .

وبراعة الاستهلال أخص من حسن الابتداء ، وهو ما ناسب المقصود بأن يكون مطلع الكلام دالاً على غرض المتكلم من غير تصريح بل بإشارة لطيفة^(١).

والقرآن كله يتميز بعذوبة لفظه ، وحسن سبكه ، وصحة معناه بل هو معجز في جميع ذلك .

وسوره تتميز بحسن الابتداء وبراعة الاستهلال .

ومن براعة الاستهلال ، وحسن الابتداء مطلع سورة الفاتحة حيث بدأت بهذه الآية التي تجمع جميع المحامد لله - سبحانه - (الحمد لله رب العالمين) فهذا الإنسان العابد لله جدير به أن يعلن في عبادته لربه أن الحمد كله لله ، فهو الذي خلقه ، ويهديه ، ويطعمه ويسقيه ، وإذا مرض فهو الذي يشفيه . إنه تعالى جدير بالحمد دائماً ، فهو رب العالمين المتفضل على عباده بالنعمة ، فهو الذي يربيهم بها ، ويحفظهم برعايته وعنايته .

حسن الانتقال :

ومن بدائع جمال النظم القرآني حسن الانتقال من غرض إلى غرض أو من فكرة إلى أخرى مع رعاية الملاءمة بينهما .

وسور القرآن كلها قائمة فيما بينها على حسن الارتباط . . وآيات السورة الواحدة تتميز بحسن الارتباط فيما بينها سواء في المعاني والمباني .

وسورة الفاتحة التي رأينا كيف بدأت بالحمد ، وكانت بداية بارعة نرى فيها كذلك حسن الارتباط في الانتقال من فكرة إلى فكرة أو من آية إلى أخرى .

إن البدء كان بقوله تعالى : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ فكيف نرى الانتقال؟

إنه انتقال عجيب لا نشعر به ؛ لعظيم الصلة بين الآية الأولى والثانية ،
حيث جاءت الثانية ، وهي تحمل أوصافاً أخرى لله سبحانه ﴿الحمد لله رب
العالمين * الرحمن الرحيم﴾ وهكذا تسير الآية الثالثة ﴿مالك يوم الدين﴾

فإذا كانت الآية الأولى وصفت المولى بأنه رب العالمين - فإن الثانية
وصفته بأنه الرحمن الرحيم ، والثالثة وصفته بأنه مالك يوم الدين .

بعد سرد هذه الأوصاف - كيف يتم الانتقال ؟

إنه انتقال عجيب من أسلوب الغائب الذي رأيناه في تلك الآيات الثلاث
إلى أسلوب الخطاب^(٢) . ﴿إياك نعبد ، وإياك نستعين﴾ .

وفيه يعلن العبد مخاطباً مولاه أن العبودية له وحده ، وأن الاستعانة به
وحده .

ذلك أن الله هو المعبود وحده ، وهو المستعان وحده ، وطلب الهداية
إلى الحق والتوفيق إلى سلوك الطريق المستقيم لا يكون إلا به ، فهو الذي
يهدي إلى الطريق المستقيم ، وهو طريق الذين أنعم الله عليهم ، ورضي
عنهم ورضوا عنه ، لا طريق المغضوب عليهم الذين سخط الله عليهم ،
فأنزل عليهم عذابه في الدنيا ، وما ينتظرهم في الآخرة أكبر ، ولا طريق
الضالين الذين ضلوا عن الحق ، وأضلوا ، فهم في الظلمات يعمهون .

وإذا حصل للعبد الهداية إلى الطريق المستقيم ، والنجاة من غضب الله ،
ومن الضلال فقد فاز في الدنيا والآخرة .

وبهذا المعنى الجليل كانت خاتمة سورة الفاتحة ﴿اهدنا الصراط المستقيم*
صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ . فكانت خاتمة
رائعة ، متضمنة لخيري الدنيا والآخرة .

وانظر إلى براعة الاستهلال ، وحسن الانتقال ، وحسن الختام في سورة البقرة .

- تجد براعة الاستهلال تظهر جلية في افتتاح السورة بالأحرف المقطعة ﴿الم﴾ التي ترمز إلى إعجاز القرآن الكريم كما يذهب فريق من العلماء^(٣) .

يلي هذا الافتتاح وصف القرآن بالكمال والصدق والهدى للمتقين ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] .

وقد جاء وصف القرآن هنا بأبلغ أسلوب وأؤكد فاسم الإشارة (ذلك) التي للبعد فيها معنى التصوير والتعظيم .

وتعريف الكتاب يحمل معنى الكمال ، فهو القرآن الكامل الذي يستحق أن يختص باسم الكتاب .

ثم يأتي بعد وصفه بالتعظيم والكمال وصفه بخلوه من أن يكون محلاً للريب والشك .

فالقرآن عظيم ، كامل ، وحق ، وصدق ، وهو في الوقت نفسه هدى للمتقين .

وهداية القرآن الكريم للمتقين صفة من صفاته ، وثمرة من ثمار عظمته وكماله وصدقه .

إن هذا البدء بالأحرف المقطعة ، وبهذا الوصف للقرآن الكريم براعة استهلال ، وحسن ابتداء^(٤) .

فالآيات التي جاءت بعد هذا البدء تكشف عن مواقف الناس تجاه هذا القرآن العظيم الموسوم بالعظم والكمال ، وبالصدق والهدى .

فتبين أول ما تبين موقف المؤمنين الذين وصفتهم الآيات بعدد من الصفات التي أهلّتهم ، ليكونوا هم أهل الفلاح .

وتتلو ذلك ببيان موقف الكافرين فتذكر من صفاتهم إصرارهم على الكفر ، وتعطف عليهم المنافقين ، وتجلّي موقفهم من الإيمان وهو موقف يتسم بالتردد والخذاع .

وتنطلق السورة مجلية حال الناس مؤمنهم وكافرهم ، ومنافقهم تجاه توجيهات القرآن الكريم ، راسمة المنهج السديد للإنسان في هذه الحياة ، واضعة أمامه تشريعات تصلح حاله في دنياه وآخره . .

ثم تختم السورة بآيتين عظيمتين تشيران إلى المعاني الكثيرة التي حوتها السورة ، فتقرر الأولى أن الرسول والمؤمنين معه قد آمنوا بما أنزل إليهم من ربهم إيماناً شاملاً بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وهم سامعون طائعون طالبون من الله المغفرة على التقصير^(٥) : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة : ٢٨٥]

وتعلن الآية الثانية أن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها ، مشيرة إلى أن تلك الأحكام الشرعية التي وردت في السورة هي في وسع المؤمنين ﴿ لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ... ﴾

وعلى المؤمنين أن يجتهدوا في تنفيذها ، فلهم ما كسبوا ، وعليهم ما اكتسبوا . . .

وعليهم أن يتذكروا ضعفهم وخطأهم ونسيانهم تذكراً يدفعهم إلى التضرع ليلاً ونهاراً بأن يكون الله في عونهم قائلين : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا

وُسَعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿البقرة: ٢٨٦﴾

الطباق :

هذا فنٌ يعد من بدائع النظم القرآني ، ويعرفه البلاغيون بأنه الجمع بين معنيين متقابلين في الجملة^(٦) ، وقد ورد في القرآن كثيراً ، والآن خذ شاهداً عليه قوله تعالى : ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرِزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران : ٢٦ ، ٢٧]

- ثم تأمل فيه تجد من روائع هذا النظم الكريم الجمع بين معنيين متقابلين هما : ﴿تؤتي الملك من تشاء﴾ و﴿وتنزع الملك من تشاء﴾ والجمع كذلك بين ﴿تعز من تشاء ، وتذل من تشاء﴾ .

إن هذا الجمع هو الذي جعل المعنى يبين للسامع فيرسخ في نفسه ، ويرى من خلاله إشراق المعنى وجمال التركيب في آن واحد . . .

وعد إلى الآية وانظر إلى روائع النظم في قوله تعالى في ختام الآية ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تجد أن الآية وصفت المولى - عز وجل - بجملة أوصاف هي : مالك الملك ، وأنه يؤتي الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، وأنه يعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، وأن بيده الخير فكان من المناسب لهذه الأوصاف كلها ، ومن المتمم لها أن تختتم الآية بقوله تعالى : ﴿إِنَّكَ

على كل شيء قدير ﴿أي بوصف الله تعالى أنه قادر على جميع الأشياء ،
فزاد هذا الختام تلك الأوصاف وضوحاً في النفس ، وزاد الآية جمالاً
وبهاء

وقد درس علماء البلاغة مثل هذا النظم الجميل ، وأطلقوا عليه مراعاة
النظير ، ومنه في آيات القرآن ما أسموه بـ « تشابه الأطراف ، وهو أن تختتم
الآية بما يتناسب مع مضمونها كما رأينا في الآية السابقة ^(٧) .

ثم انظر إلى الآية الأخرى ، وإلى هاتين الجملتين منها : ﴿تولج الليل في
النهار ، وتولج النهار في الليل﴾ - تجد من روعة النظم هذا الجمع بين متضادين
هما الليل والنهار ، وهذا التقديم والتأخير أو ما يسمى العكس في علم
البديع .

وانظر إلى روعته ، وابحث عن المعنى من ورائه في قوله تعالى :
﴿وتخرج الحي من الميت ، وتخرج الميت من الحي﴾ تجد هاتين الآيتين تمضيان في
سرد بعض صفات الله سبحانه ، وقد ذكرت وصفه بالملك الشامل ،
والتصرف المستمر ، فيؤتي ملكه من يشاء ، وينزعه ممن يشاء ، ويدل من يشاء ،
ويعز من يشاء ، وأن الخير بيده ، وأنه على كل شيء قدير .

ومن دلائل قدرته أنه يولج الليل في النهار ، ويولج النهار في الليل ، وأنه
يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي ، وأنه يرزق من يشاء بغير
حساب ، ولا عجب في هذا فالذي له تلك الصفات ، وتلك الأفعال العظيمة
قادر على أن يرزق من يشاء بغير حساب .

المقابلة :

والآن قف مع فن المقابلة التي يقصد بها : الإتيان بمعان متوافقة ثم بما يقابلها على الترتيب^(٨) . وخذ شاهداً عليها قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾ [الليل : ٥ - ١٠] .

وتدبر هذا القول الكريم ، وابحث عن سر الجمال في نظمه ، تجد أن من أسرار جماله المقابلة البديعة بين الآيات الثلاث الأولى التي تتحدث عن المعطي المتقي ، والآيات الثلاث الأخرى التي تتحدث عن الباخل المستغني . . .

فالآيات وضعت أمام القارئ شخصين : أما الأول فهو الذي أعطى مما رزقه الله ، واتقى الله فرجا ما عنده ، وصدق بالحسنى ، وكانت ثمرة هذا العمل التيسير اليسرى .

وأما الثاني فهو الذي بخل بما رزقه الله ، واستغنى عن الله ، فلم يرجُ ما عنده ، وكذب بالحسنى ، وكانت ثمرة هذا العمل التيسير للعسرى .

ألا ترى أن المعنى تجلّى بهذه المقابلة البديعة ، وأن السامع قد أثارتة وحركت مشاعره وأن النظم الكريم قد حسن بها وراق .

ثم انظر وتأمل في المقابلة الواردة في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلُ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَضِيَاءَ أَفْلا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفْلا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [القصص : ٧١ - ٧٣] .

فإذا نظرت وتأملت وجدت المقابلة سرّاً من أسرار النظم الكريم قد أضفت عليه الإشراق وحركت المشاعر ، ورسخت المعاني في القلوب .

فهناك : ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة... ﴾
وهنا ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة... ﴾
وهناك : ﴿ من إله غير الله يأتيكم بضياء... ﴾ وهنا ﴿ من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ﴾ وهناك : ﴿ أفلا تسمعون ﴾ وهنا ﴿ أفلا تبصرون ﴾ .

ولكن تأمل ما ترشد إليه عبارات هذه المقابلة في الآية الأولى وفي الآية الثانية - تجد أن الله تعالى ينبه السامعين على نعمة جليلة بها يتحقق لهم راحة الأبدان في الليل ، وابتغاء الفضل في النهار ، ففي الليل يجد العامل راحته من المشقة التي واجهها طوال يومه . . .

إن الليل يحمل معه لهذا العامل بشائر كثيرة منها : انتهاء فصل من العمل المضني والدخول في فصل من الراحة والاستجمام .

وظلام الليل يوحى إلى النفس بجو آخر يختلف تماماً عما تشعر به النفس في النهار ، فالليل بظلامه يهب الإنسان الهدوء النفسي ، لأنه يبعده عن الأضواء التي ملّ منها طوال اليوم ، ويبعده عن التوتر العصبي الذي يساير العمل . .

ولكن بعد أن تأخذ النفس راحتها في الليل ، تتطلع إلى النهار ، لتجد فيه الإشراق والحركة والانطلاق في أرض الله ، للابتغاء من فضل الله .

فلو كانت الحياة ليلاً سرمداً ، لفات هذا الإنسان نعم خاصة وعامة ، لذا فإن الله تعالى يقول : ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء . أفلا تسمعون ﴾ .

وجاء التعبير ﴿بضياء﴾ ، لأن الإنسان بعد الظلام يبحث عن الضياء الذي يحقق له منافع كثيرة ، فلو ذهب الله بالضياء لذهب على الإنسان منافع كثيرة .

ثم تلفت الآية الثانية انتباه الناس إلى أمر مهم هو نعمة الليل الذي به يتحقق السكون ، فيجىء التعبير حاثاً المخاطب أن يتصور الحياة نهائياً سمرمداً ، فماذا تكون الحال ، وكيف يجد الإنسان الراحة والسكون ؟ : ﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سمرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ، أفلا تبصرون﴾ .

وبعد هذه الآية تأتي الآية الثالثة تقرر بأسلوب بديع أن من رحمة الله بعباده أن جعل الليل والنهار يتعاقبان ، ليتحقق في الليل السكون وفي النهار ابتغاء الفضل فيقول تعالى : ﴿ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار ، لتسكنوا فيه ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون﴾ .

وقد وقف علماء البلاغة عند هذه الآية ، وبينوا بعض أسرار جمال نظمها البديع ، وقالوا : إنها احتوت على محسن معنوي هو الطباق بين لفظين متقابلين هما الليل والنهار^(٩) وهذا المحسن المعنوي يؤكد المعنى في الذهن بسبب التقابل الذي تحقق بالجمع بين لفظين متضادين ، وهذا التقابل في الوقت نفسه يلفت انتباه القارئ والسامع إلى التدبر . . . ولا يقتصر أثر الطباق عند هذا الحد بل يتعداه إلى زيادة الأسلوب جمالاً وبهاء ، بسبب الجمع بين لفظي الليل والنهار في سياق واحد .

اللف والنشر :

وكما أن قوله تعالى : ﴿ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار .. ﴾ يحتوي على الطباق فإنه يحتوي على فن بديعي آخر يعد سرّاً من أسرار جمال الآية ألا وهو اللف والنشر الذي عرفه البلاغيون بأنه « ذكر متعدد على جهة التفصيل أو الإجمال ثم ما لكل واحد من غير تعيين »^(١٠)

وقد جاء اللف في ذكر الليل والنهار معاً وتلاه النشر بذكر ما يتناسب مع الليل والنهار من غير تعيين ، اعتماداً على أن السامع يعلم ذلك من خلال السياق . .

والذي يتناسب مع الليل جملة : ﴿ لتسكنوا فيه ﴾ والذي يتناسب مع النهار جملة : ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾ .

لكن الملاحظ في نظم الآية أن السكون حُدد في الليل ، فالضمير (فيه) يعود إلى الليل كما يدل على ذلك السياق ، وآيات أخر كقوله تعالى من سورة النمل : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النمل : ٨٦]

أما ابتغاء الفضل فلم يحدد بالنهار دون الليل مما يدل على وقوعه في النهار والليل ، وإن كان أكثره يقع في النهار ، لتمييز النهار بالابصار الذي يساعد على العمل فيما يريد الإنسان .

وجعل النهار مبصراً نعمة عظيمة يجب على الإنسان أن يستثمرها فيما يعود عليه بالنفع في الدنيا والآخرة ، لذا جاء التعبير القرآني ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾ يتضمن الحث على العمل الصالح مع استشعار التوجه إلى الله الذي له الأمر كله ، ويده الفضل كله .

وهذا الإخبار من الله فيما يتعلق بالليل والنهار وأنه جعل الليل سكناً والنهار مبصراً يدعو الإنسان إلى شكر الله على هذه النعم التي لولاها لشقي الإنسان في حياته ، ولكنها رحمة ربي وسعت كل شيء .

ولذا جاء ختام الآية يوصي الإنسان بالشكر ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ .

وتأمل في قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة : ١٣٥]

تجد اللف والنشر في هذه الآية يعد سراً من أسرار جمال النظم فيها ، إذ تحقق من خلاله الإيجاز والاختصار البديع في كلمة (وقالوا) أي قالت اليهود للمسلمين كونوا هوداً تهتدوا ، وقالت النصارى للمسلمين كونوا نصارى تهتدوا فاللف المجمل أو الجمع بين القولين في كلمة : (وقالوا) أدى إلى الاختصار البديع الذي أضفى على الآية جمالاً وإيجازاً بديعاً .

وفي قوله تعالى : ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ نشر لمقالة كل من اليهود والنصارى وهو نشر مختصر أدرك القارئ من خلاله مقالتي الفريقين بكل يسر .^(١١)

فواضح - إذن - أن اللف والنشر في هذه الآية يعد وجهاً من وجوه الجمال في هذه الآية .

التجريد :

وأنت تطوف مع بدائع القرآن الحكيم قف مع هذه الآية الكريمة : ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت : ٢٨] . وتأمل وجهاً من وجوه الجمال في نظمها الكريم - تر الآية بدأت باسم الإشارة : (ذلك) الذي يرسم أمام العين النار ، وكأنها حاضرة مشهودة .

وبعد أن تصوّر العقل تلك النار لأعداء الله أبرزت الآية منها داراً هي دار الخلد ترهيباً لأعداء الله الذين يجحدون بآيات الله .

إن هذا النحو من النظم أسماء البلاغيون التجريد ، وقصدوا به انتزاع أمر آخر من أمر ذي صفة ، لإفادة المبالغة^(١٢) .

ومرة أخرى قف مع أسلوب التجريد في قوله تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب : ٢١] . ترسراً من أسرار جمال هذه الآية يكمن في هذه الأسلوب المسمى التجريد ، وبالذات في قوله ﴿... لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾ .

فمن يبحث عن الأسوة الحسنة ، ويريد أن يراها أمامه ماثلة فسيجدها في رسول الله ، إنها رسول الله ﷺ .

ولكن الآية القرآنية لم تقل لنا : إن الأسوة الحسنة - رسول الله ، بل سلكت أسلوباً فيه التصوير لهذا المعنى ، والأداء الأوفى حين جعلت الأسوة الحسنة ماثلة في شخص رسول الله ﷺ .

المشكلة :

وإذا كان التناسب في القرآن له صور متعددة فإن من صور ما يسمى «المشكلة» بين لفظين أحدهما يحمل المعنى الأصلي ، والآخر يحمل معنى آخر بشرط التماثل في النطق بينهما أو التشابه^(١٣) ، لأغراض بلاغية دعا إليها السياق والحال . . .

خذ قوله تعالى : ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى : ٤٠] تجد هذه المشكلة بين هذين اللفظين ، فاللفظ الثاني مشاكل الأول في الصورة دون المعنى ، لأن اللفظ الأول يحمل معنى السيئة الحقيقي ، واللفظ الثاني يحمل معنى الجزاء المقابل للسيئة .

ولا ريب في أن هذه المشكلة تعد سرّاً من أسرار جمال هذه الآية ، وقد عرض لها البلاغيون والمفسرون في كتبهم وأوضحوا دقة التعبير في هذا النحو من النظم القرآني البديع^(١٤).

قف مرة أخرى مع مثال آخر على المشكلة في قوله تعالى : ﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٤]

وتأمل في هذه العبارة الكريمة : ﴿ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ تجد المشكلة بين هذين اللفظين ﴿ اعْتَدَى .. فاعْتَدُوا ... ﴾ واللفظ الثاني (فاعْتَدُوا) مشاكل الأول (اعْتَدَى) في الصورة دون المعنى ، لأن اللفظ الأول يحمل معنى العدوان الحقيقي وهو مجاوزة الحد ، واللفظ الثاني يحمل معنى رد العدوان والجزاء المقابل للعدوان ، فيكون الثاني بمعنى «فجازوه»^(١٥).

ولكن لماذا هذه المشكلة ؟

لا ريب في أن هذه المشكلة تعد سرّاً من أسرار الإعجاز في النظم القرآني البديع . وقد ظهر هذا الإبداع في النظم - فيما يبدو لي - من خلال المشكلة ، أو التناسب اللفظي مما يعطي الآية ذلك الجمال الذي نشعر به . . .

وفي الوقت نفسه تتحقق بهذه المشكلة الدقة المتناهية في عرض المعنى الذي تريد الآية تثبيته في الأذهان ، وحمل المؤمنين على العمل به . . .

كيف جاءت هذه الدقة في عرض المعنى بهذه المشكلة ؟!

تظهر الدقة إذا تصورنا الاعتداء الأول الذي يمثل الظلم وتجاوز الحد ، والثاني الذي يمثل الجزاء ورد العدوان .

- فإننا نجد بين الأول والثاني اشتراكاً في الصفة أو الجنس ، لكن الأول سبب في الثاني ، وهذا جانب من الدقة في عرض المعنى بهذه المشاكلة . . . وهناك أمر آخر ، هو أن التعبير عن الجزء بلفظ العدوان يحمل ترهيباً لمن تسول له نفسه الاعتداء على الآخرين ، فإن الاعتداء الأول سيرد باعتداء آخر

كما نلاحظ أمراً ثالثاً هو حرص القرآن على أن يكون الجزء من جنس العمل ، لذا أكدت الآية هذا المعنى بهذه المشاكلة ، وبالتصريح في قوله تعالى : ﴿ فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم . . ﴾

مراعاة النظر :

قف وقفة أخرى مع بديع آخر ، وهو مراعاة النظر الذي يقصده ذكر الأمر وما يتناسب معه لا بالتضاد^(١٦) .

وهو كثير في القرآن ، واقرأ أول سورة الرحمن : ﴿ الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ [الرحمن : ١ - ٦]

ألا ترى هذه الآيات تفيض بالتناسب من كل جانب : تناسب في مقدار الجمل : (علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان . . الخ . وتناسب في فواصل الآيات التي تنتهي بحرف النون المسبوق بحرف الألف وتناسب في معاني هذه الآيات في ضوء السياق العام للسورة وأسباب النزول . . .

واقرأ إن شئت قوله تعالى : ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ۝٢٧ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ۝٢٩ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ۝٣١ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴾ [الواقعة : ٢٧ - ٣٢]

وتأمل التناسب في مقدار الجمل ، وذكر الصدر المخضود مع الطلع المنضود ، مع الظل الممدود مع الماء المنهمر المسكوب ، إنها صورة رائعة تدفع بقارئ القرآن وسامعه إلى الإعجاب بهذا المنظر الجميل الذي يأنس له كل إنسان في هذا الوجود ، إنه منظر يبعث في النفس الحياة والراحة والاطمئنان ، والشوق إلى جنة الرحمن .

وقف مع آية أخرى وقفة تدبر تر كيف تناسب ختامها مع مضمونها ، ولتكن وقفتك مع قوله تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣٨]

إنه تعالى يأمر المؤمنين أمراً لا هوادة فيه ولا رحمة بهذا النوع الإنساني الذي تجاوز حده ، وسطا على حق غيره - يأمر الله تعالى المؤمنين بقطع أيدي السارقين جزاء ما اقترفته أيديهم . .

وهذا الحكم هو العدل الذي يتناسب مع هذا النوع ، ولن تجد فيما سنته قوانين البشر حكماً أعدل من هذا الحكم الذي به يتحقق القضاء على هذه الجريمة .

وفي الوقت نفسه لن تجد حكماً صارماً قاطعاً لهذا العمل المشين أكثر صرامة من هذا الحكم الإلهي . .

فبعد أن رأيت هذا الحكم العادل الصارم فماذا تتوقع أن يكون ختام هذه الآية ؟ هل تظن أنه سيكون « والله عليم قدير » أو « حلیم غفور » . . .

إن ختام الآية جاء بذكر صفتين لله - عز وجل - هما « عزيز حكيم » فكانت هاتان الصفتان متناسبتين مع مضمون الآية أتم تناسب .

أليس قطع يد السارق فيه معنى القوة والصرامة . وفيه معنى الحكمة التي تتفق مع هذا العمل المشين .

فاليد التي سرقت هي التي قطعت ، لأنها وسيلة السرقة ، ولو بقيت ، وكان الجزء سجنًا أو غرامة ، فمن اليسير أن يعود السارق إلى السرقة ، إذ نفسه الأمانة بالسوء ، وقلبه الحاقد على مجتمعه يدفعه إلى ارتكاب سرقة أخرى يراها صفقة رابحة . .

فكان قطع اليد حلاً جذرياً ، ومانعاً أبدياً أن يعود مقطوع اليد إلى ارتكاب جريمة السرقة .

وفي الوقت نفسه سيكون عبرة للمعتبرين فيمتنع كل إنسان يهتم بالسرقة من الإقدام عليها ، لأن الجزء الصارم رآه أمام عينيه . . .

التقسيم :

وتأمل أيها الباحث عن ثمرات البديع ، وقف مع نماذج من تقسيمات القرآن ترأسلوب المشرق ، والتحسين المعنوي ينبعثان من التقسيم المبني على النظم الجميل .

انظر إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿ [آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١]

تجد التقسيم في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ زهرة متفتحة من زهرات النظم الكريم .

إن هذا التقسيم جاء موافقاً للحالات المتعددة التي يكون فيها ذكر الله ، وهي حالة القيام ، وحالة القعود ، وحالة الجنب ، فبدأت الآية ، بأكثرها ، فالمؤمن يذكر الله قائماً في صلواته المفروضة وفي صلواته المسنونة والمستحبة ، وفي مشيه ، وفي وقوفه متأملاً في خلق السموات والأرض . .

وثنت بحالة القعود ، لأنها أقل في ذكر الله ، وتمت بها المقابلة بين القيام والقعود . .

وثالث بحالة الذكر على الجنب ، وبها استوفت الآية جميع الحالات التي يذكر الله فيها ، فحسن التقسيم في معناه ومبناه . .
قف مرة أخرى مع تقسيم آخر في آية من آيات المواريث ترأه سر من أسرار النظم القرآني المعجز .

هذا التقسيم جاء في قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوَصِّينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوَصِّونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ... ﴾ [النساء : ١٢]

هذه الآية عرضت طريقة توزيع تركة الزوجين بعد موت أحدهما بأسلوب التقسيم والمقابلة ، فذكرت هذه الآية الطرف الأول أو القسم الأول وهو الزوج وتلته بذكر الطرف الثاني أو القسم الثاني وهو الزوجة .
وكان البدء بالزوج ، لأن الرجال قوامون على النساء . . .

فبينت ما يستحق من مال الزوجة بتقدير حكيم وبأسلوب دقيق ، فله نصف ما تركت زوجه بشرط خلوها من الولد ، أما إن كان لها ولد فله الربع مما تركت ، ولكن بعد تنفيذ الوصية وأداء الدين . . .

ثم ذكرت الآية ما تستحق الزوجة من تركة زوجها ، فلها الربع مما ترك بشرط خلوه من الولد ولها الثمن إن كان له ولد ، ولكن بعد تنفيذ الوصية وأداء الدين . . .

ونلاحظ مع أسلوب التقسيم المقابلة التي ظهرت بين (لكم . .) (ولهن . .) وبين (فإن كان لهن ولد) و (فإن كان لكم . . .) وبين (من بعد وصية يوصين . .) و (من بعد وصية توصون . .) .

إن هذا التقسيم بذكر الطرفين ، وهذه المقابلة كانتا سرّاً من أسرار جمال النظم الكريم أديا إلى جذب انتباه السامعين ، وإلى ترسيخ المعنى في القلوب مع جمال في النسق القرآني العظيم .

الجناس :

ومن أسرار الجمال في النظم القرآني ما يسمى في « علم البديع » الجناس أو التجنيس أو المجانسة ، ومعناها في اللغة المشابهة^(١٧) . . . وفي عرف البلاغيين التجانس بين لفظين مختلفين في المعنى في ثلاث حالات :

الأولى : أن يأتي في النص لفظان اتحدا في النطق ، واختلفا في المعنى .

والثانية : أن يأتي في النص لفظان تشابها في النطق .

والثالثة : أن يأتي في النص لفظان يجتمعان في الاشتقاق أو ما يشبه الاشتقاق اللغوي :^(١٨)

وفي ضوء هذا التعريف تأمل جمال الجناس في آيات من القرآن الكريم يقول تعالى في سورة الروم : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴾ [الروم : ٥٥]

هذه الآية كغيرها من آيات القرآن الحكيم تحتوي على أسرار عجيبة في النظم لا يستطيع الدارس أن يكشف عنها في آن واحد . . .

ولكن رتل أيها القارئ العزيز هذه الآية مرتين أو أكثر ، وقل لي ماذا شد انتباهك منها ، واستولى على مشاعرك ؟ وفيم رأيت الجمال بارزاً ؟

لا ريب أنك ستقول : إن الذي شد انتباهي هو ذلك التجانس العجيب بين ألفاظها . . وبخاصة بين لفظي « الساعة » و « ساعة » وتزداد إعجاباً بهذا التجانس حين تدرك أن المراد بالساعة الأولى : القيامة و (ساعة) الثانية : الزمن اليسير . . .

فهنا لفظان اتحدا في النطق ، واختلفا في المعنى ، فأكسبا الأسلوب جمالاً ، والمعنى تأكيداً في النفس .

وانظر إلى التجانس العجيب في قوله تعالى من سورة النور : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَالِهِ وَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَآ بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ يَقْلَبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ [النور: ٤٣، ٤٤]

قف عند قوله تعالى : ﴿ يَكَادُ سَنَآ بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ، يقلب الله الليل والنهار ، إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ﴾ ورتل هذا القول الكريم مرة أو مرتين على مسمعك تجد تجانساً عجيباً بين ألفاظه لا نستطيع بيانه في هذا المقام ، ولكن الذي يهمنا من ذلك التجانس ما يدخل تحت تعريف الجناس التام عند البلاغيين وهو الجمع بين لفظين اتحدا في النطق واختلفا في المعنى وهنا نجد لفظ « الأبصار » تكرر مرتين ، وله في الأولى والثانية معنى يدرك من خلال السياق ، فالأبصار الأولى العيون ، والثانية العقول المتأمللة في عجائب قدرة الله .

لا ريب أن هذا الجناس يعد سرّاً من أسرار النظم المعجز في هذه الآية .
وهناك في الذكر الحكيم ضرب آخر من الجناس له أثر واضح في تمكين
المعنى وجمال الأسلوب ألا إنه الجناس غير التام .

خذ قوله تعالى من سورة البقرة : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا
يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ
الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ
فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ
لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ [البقرة : ٢٧٥ ، ٢٧٦]

وأمعن النظر في هذه الآية الأخيرة تجدها تفيض بالتناسب أو التجانس
المعجز بين جملتها الثلاث : (يحق الله الربا) وهذه حقيقة ، ثم تأتي حقيقة
أخرى والناس عنها غافلون ، وهي أن الله يربي الصدقات ، وإذا كان الأمر
كذلك فأقبلوا أيها الناس على الصدقات وأبعدوا عن الربا فإن الله لا يحب
كل كفار أثيم .

ولكن الجناس يشتد ظهوراً في الآية عند قوله تعالى : (يحق الله
الربا ، ويربي الصدقات) وبالتحديد بين لفظي : «الربا ويربي» فالكلمة
الأولى تتفق مع الثانية في حرفي الراء والباء ، وفي المعنى اللغوي لهذه الكلمة
وهو الزيادة^(١٩) ، فالربا معناه الزيادة ، ويربي بمعنى ينمي التي تؤدي إلى
معنى الزيادة ، ولكن الربا زيادة باطلة محوقة في يوم من الأيام ، والصدقات
زيادة مباركة تنمو مع الأيام .

وخذ قوله تعالى من السورة نفسها : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا
بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ
تُبْتُمْ فَلَكُمْ رَعُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٧٨ ، ٢٧٩]

وأمعن النظر في هذه العبارة الكريمة : ﴿ لَا تَظْلُمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ تجد جمالاً في النظم ودقة بالغة في أداء المعنى ، كان من أسبابه هذا التجانس اللطيف بين « تظلمون » بالبناء للمعلوم أو بفتح تاء المضارعة و « تُظلمون » بالبناء للمجهول أو بضم تاء المضارعة ، فاختلاف الحركة في أول الفعل أدى إلى اختلاف المعنى كما يظهر من السياق .

ومع تأكيد المعنى والجمال نرى الإيجاز البديع بارزاً من حسن اختيار الكلمة ف (لا تظلمون) كلمة تدل على أن الزيادة على رأس المال أي « الربا » ظلم ، لأنه أكل لأموال الناس بالباطل ، ثم حذف المفعول الذي يدل عليه السياق ، يعطي هذه العبارة القرآنية معنى العموم ، فتكون صالحة وقت نزولها وما بعده إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

والعبارة الأخرى (لا تُظلمون) تحمل السمات السابقة من التأكيد للمعنى والجمال في اللفظ والإيجاز البديع ^(٢١) .

التصدير :

ومن أسرار الجمال في النظم القرآني ما يسميه البلاغيون « التصدير » أو رد العجز على الصدر ويحددون ذلك بأن يأتي في الفقرة لفظان مكرران أو متجانسان أو ملحقان بهما ، أو لهما في بداية الفقرة ، وثانيهما في نهايتها ^(٢١) .

ومن شواهد ذلك ما جاء في سورة الأحزاب من قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [الأحزاب : ٣٧]

هذا الخطاب في قوله تعالى : ﴿وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾
موجه إلى الرسول ﷺ . . .

وكان ينبغي لنا الوقوف على جمال النظم في هذه الآية كلها ، وفي ضوء مقاصد السورة العامة ولكن طبيعة هذا البحث يتطلب منا أن نبين وجهها من وجوه جمال النظم في هذه الآية ، وهو التصدير في هذه العبارة : (وتخشى الناس ، والله أحق أن تخشاه) .

فالتأمل في هذا النص الكريم يجد أنه بدأ بلفظ (وتخشى) وانتهى به فأدى هذا النظم المعني خير أداء ، وأجمله ، وهذا النحو من الأسلوب هو الذي يسميه البلاغيون التصدير الذي به يتحقق ربط أول القول بآخره ، وبه يتأكد المعنى في الذهن ويتمكن خير تمكن .

وخذ قوله تعالى من سورة نوح : ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا
﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ [نوح : ١٠ ، ١١]

وتأمل فيه تجد أن هذه العبارة ﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفارا ﴾ بدأت بهذا الأمر : (استغفروا) وانتهت بهذا الوصف لله سبحانه : (غفارا) وتجد بين الأمر والوصف رابطاً يصل بينهما هو الاشتقاق فاستغفروا وغفارا يجتمعان في مادة « غفر » .

إن هذا البدء بـ (استغفروا) وهذا الانتهاء بـ (غفارا) جعل العبارة مشرقة في بيانها ، مؤكدة لمعناها .

ومرد هذا الإشراق في البيان ، والتأكيد في المعنى فنّ التصدير عن طريق الجمع بين لفظين يجمع بينهما الاشتقاق .

وخذ قوله تعالى من سورة الشعراء حكاية عن لوط عليه السلام : ﴿ قَالَ
إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴾ [الشعراء : ١٦٨] تجد هذا التناسب الجميل بين مطلع الآية
وختمها حيث بدأت بـ (قال) وخُتِمت بـ (القالين) .

إن التصدير في هذه الآية الذي جاء بلفظين يجمعهما شبه الاشتقاق -
لهو سر من أسرار جمال النظم فالقارئ لهذه الآية يستثيره الجمع بين لفظي
(قال) و (القالين) فيتأمل فيهما فيتبين له أن القالين مشتق من القلى بمعنى
البغض^(٢٢) فلو ط عليه السلام قال لقومه : إني لعملكم من المبغضين . . .
ولكن دلالة كلمة « القالين » على هذا المعنى أو في معنى وأكثر إشراقاً في
البيان القرآني .

الفاصلة في القرآن أو السجع :

ومن أسرار جمال النظم القرآني تلك الفواصل التي تقوم عليها آيات
السور ، وتلك الأسجاع التي تشع بجمالها في كثير من سور القرآن ، أما
الفاصلة القرآنية فهي تلك الكلمة أو الجملة التي تنتهي بها الآية^(٢٣) ، وهي
أعم من السجع الذي يراد به اتفاق الفاصلتين من الفقرتين على حرف
واحد^(٢٤) ، ذلك أن الفاصلة في بعض السور قد تسير على أسلوب السجع ،
وقد تخرج على ذلك في بعض الآيات فتسير على أسلوب الموازنة ، وقد
تخرج على أسلوب الموازنة فتسير على أحرف متنوعة وقد تخرج الفواصل
على رتبة الأسجاع من حيث الوزن وطول الجمل .

بل قد تتنوع الفاصلة في السور الواحدة من حرف إلى حرف على
حسب الموضوع الذي تتحدث عنه السورة^(٢٥) .

ولا ريب أن أثر الفواصل في زيادة الجمال في النظم القرآني أمر واضح لمن تأمل ذلك في أي سورة من سور القرآن ، ولمن طبق أحكام التجويد القرآني تطبيقاً جيداً . .

إن السامع لفواصل القرآن وأسجاعه يحس بجمال الإيقاع لهذه الفواصل والأسجاع ، ويدرك عظيم أثرهما في نفسه .

ولا يتفاضل السجع في القرآن بل يأتي في درجة واحدة من البلاغة ، وإن جاء منه السجع القصير ، أو المتوسط ، أو الطويل ، لأن القصير في السجع أو المتوسط أو الطويل يجيء مطابقاً للغرض العام في السورة .

اقرأ سورة الأنفال ، وتأمل في السجع الطويل الذي ورد فيها على ضوء الهدف العام من هذه السورة . ، تجد أنه جاء مطابقاً لهذا الهدف ، وأنه جاء في أعلى درجات البلاغة والإعجاز .

واقرا سورة القمر ، وتأمل في السجع المتوسط الذي ورد فيها على ضوء الهدف العام من هذه السورة تجد أنه جاء مطابقاً لهذا الهدف ، وأنه جاء في أعلى درجات البلاغة والإعجاز .

واقرا سورة المرسلات ، وتأمل في السجع القصير الذي ورد فيها على ضوء الهدف العام من هذه السورة تجد أنه كذلك جاء مطابقاً لهذا الهدف ، وأنه جاء في أعلى درجات البلاغة والإعجاز .

الموازنة :

ومن أسرار جمال النظم في القرآن ما يسمى « الموازنة » ، ومعناها عند البلاغيين اتفاق الفاصلتين من الفقرتين في الوزن دون حرف الفصل^(٢٦) .

ولا ريب أن التوازن في الكلمات يزيد من شدة تأثيرها في النفس النابع من جمال الإيقاع .

خذ قوله تعالى من سورة ق من الآية الأولى إلى الخامسة : ﴿ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ ﴿١﴾ بَلْ عَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَئِنَّا مَتَنَا وَكُنَّا تَرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ﴿٥﴾﴾ [ق: ١-٥]

وتأمل هذه الموازنة التي جاءت عليها فواصل هذه الآيات وهي على الترتيب : المجيد ، عجيب ، بعيد ، حفيظ ، مريج .

تجد أن هذه الكلمات جاءت على وزن واحد هو « فعيل » وحرف الفصل جاء مختلفاً ، فالأول الدال ، والثاني الباء ، والثالث الدال ، والرابع الظاء ، والخامس الجيم .

فكان لهذه الموازنة الأثر الكبير في نفس القارئ والسامع ، فضلاً على أن هذه الفواصل تدل دلالة أوفى على المعنى الذي تهدف إليه هذه السورة الكريمة .

وانظر إلى موازنة بديعة أخرى في آيات من سورة البروج هي قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٠-١٢]

تجد كلمة « الحريق » توازن كلمة « الكبير » وهما يوازنان كلمة « شديد » فكانت هذه الموازنة وجهاً من وجوه الجمال في هذا النظم القرآني البديع . .

وقف مرة ثالثة مع هذه الموازنة البديعة في هذه الآيات من سورة الفتح وهي قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (٧) ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ (٨) لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَفِّرُوهُ وَت_Sِيحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفتح : ٧ - ٩]

وتأمل في هذه الآيات تجدد الموازنة جاءت في فواصلها وهي على الترتيب : حكيم ، نذير ، أصيل .

إن هذه الموازنة وجه من وجوه الجمال في هذا النظم القرآني البديع ، إذ تحقق بها جمال في الإيقاع أو الجرس ، وفي الوقت نفسه تدل على المعنى المراد دلالة تامة .

تأمل المعنى في الآية الأولى تجد أن الله أخبر فيها بأن له جنود السموات والأرض ، فهو القوي الذي يملك قوى الأرض والسماء . .
ومن كان على هذا الوصف فهو العزيز الذي لا يقهر .

ومن ملك جميع القوى ، وجعلها في مواضعها اللاتقة بها - كان حكيما . . .

وتأمل المعنى في الآية الثانية تجد أن الله أخبر فيها بأنه أرسل محمداً ﷺ ، وهو يتصف بأنه شاهد على الناس في تبليغ رسالة الإسلام ، ومبشر لهم بالجنة والمغفرة ، ونذير لهم من عذاب شديد .

وإن بعث الرسل على هذه الحال التي ذكرنا لهو من تمام الحكمة الإلهية التي بها صلاح العباد والبلاد .

وإن صلاح الإنسان في هذه الحياة يكون بالإيمان بالله ورسوله ، ونصرته باتباع أوامره ، واجتناب نواهيه .

ومن أعظم مظاهر الطاعة والصلاح تسبيح الله بكرة وأصيلا . . .
وهذه المعاني جاءت مقرررة في الآية الثالثة من هذا النظم الكريم .

المماثلة :

وإذا كانت « الموازنة » من أسرار جمال النظم القرآني ، فإن المماثلة كذلك ويراد بها عند البلاغيين أن تتماثل الفقرتان أو أكثر ما فيهما في الوزن دون حرف الفصل^(٢٧) .

وهذا التماثل بين كلمات الفقرات يؤدي إلى جمال النظم ، وإلى ترسيخ المعنى في الذهن .

تأمل ذلك في قوله تعالى من سورة الصافات : ﴿وَأَتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الصافات : ١١٧ ، ١١٨]
وانظر إلى قوله تعالى من سورة الواقعة : ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة : ٩٠ ، ٩١]

تلحظ أن المماثلة التي جاءت بين رجت وبست وبين رجا وبسا ، أكسبت النظم جمالاً ، وكان هذا الجمال مؤدياً إلى اجتذاب القارئ والسامع وإلى وضوح المعنى وترسيخه في الذهن .

وقف مرة ثالثة عند المماثلة في قوله تعالى : ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ [النازعات : ١-٤]

تجد كل آية مكونة من كلمتين متماثلتين في الوزن - دون حرف الفصل - مع التي تليها فالنازعات مثل الناشطات وغرقاً مثل نشطاً . . . وهكذا بقية الآيات . . . مما كان له أكبر الأثر في جمال النظم وفي وضوح المعنى . . .

خاتمة البحث :

يتضح من البحث أن هذه المحسنات البديعية التي وقفنا عندها تعد سرّاً من أسرار الجمال في النظم القرآني .

ومن الثابت أن البلاغيين لم يغفلوا هذا الجانب ، ولكن وقفاتهم كانت سريعة تتجه إلى ذكر الشاهد على المحسن من القرآن وغيره ، كما أن أكثرهم لا يبيّن الوجه الجمالي للمحسن البديعي في أي الذكر الحكيم .

لذا حرص الباحث على تجلية هذا الأمر من خلال آيات الذكر الحكيم ، وتحليلها تحليلاً يتوافق مع الهدف الذي يسعى إلى تحقيقه .

الهوامش :

- ١ - انظر الإيضاح ج ٤ ص ١٤٨ ، ١٥١ وبغية الإيضاح ج ٤ ص ١٤٨ ، ١٥١ .
- ٢ - انظر الكشف ج ١ ص ٢٣ .
- ٣ - انظر في ظلال القرآن ، ج ١ ص ٣٨ .
- ٤ - انظر تفسير أبي السعود ج ١ ص ٣٩ ، ٤٠ ، وروح المعاني ج ١ ص ١٠٦ ، ونظم الدرر ج ١ ص ٧٩ ، وتفسير التحرير والتنوير ج ١ ص ٢١٩ - ٢٢٢ ، والنبأ العظيم ص ١٥٩ ، وتفسير سورتي الفاتحة والبقرة ص ٥٠ .
- ٥ - انظر في ظلال القرآن ، ج ١ ص ٣٤٣ - ٣٤٥ .
- ٦ - انظر الإيضاح ج ٤ ص ٤ ، وعلوم البلاغة ص ٢٩٧ ، وجواهر البلاغة ص ٣٦٦ .
- ٧ - انظر الإيضاح ، ج ٤ ص ١٨ .
- ٨ - انظر الإيضاح ، ج ٤ ص ١٣ ، وعلوم البلاغة ص ٢٩٩ ، وجواهر البلاغة ص ٣٦٧ .
- ٩ - انظر الإيضاح ج ٤ ص ٢ ، والبلاغة العربية في ثوبها الجديد ج ٣ ، وعلم البديع ص ٤٦ .
- ١٠ - انظر الإيضاح ج ٤ ص ٣٤ ، وعلم البديع ص ١٧٥ ، ١٧٦ .
- ١١ - انظر البحر المحيط ، ج ١ ص ٤٠٥ .
- ١٢ - انظر الإيضاح ج ٤ ص ٤٤ ، ٤٥ ، علم البديع - القسم الثاني د . بسيوني فيود ص ٧٩ .
- ١٣ - انظر الإيضاح ، ج ٤ ص ٢٢ ، ٢٣ .
- ١٤ - انظر فتح القدير ، ج ٤ ص ٥٤١ ، وتفسير القرآن العظيم ، ج ٤ ص ١١٨ .
- ١٥ - انظر الكشف ، ج ١ ص ٢٣٤ .
- ١٦ - انظر الإيضاح ، ج ٤ ص ١٦ .
- ١٧ - انظر كتاب البديع ، لابن المعتز ، ص ١٠٧ ، ١٠٨ .

- ١٨ - انظر الإيضاح ، ج ٤ ص ٧٧ - ٨٦ .
- ١٩ - انظر مختار الصحاح مادة « ربا » ص ١٣١ .
- ٢٠ - انظر البحر المحيط ، ج ٢ ص ٣٣٩ .
- ٢١ - انظر الإيضاح ج ٤ ص ٨٧ ، وعلوم البلاغة ص ٣٣٤ .
- ٢٢ - انظر مختار الصحاح مادة « قلا » ص ٥٥٠ .
- ٢٣ - انظر من بلاغة القرآن ، ص ٧٥ .
- ٢٤ - انظر الإيضاح ، ج ٤ ص ٩٢ .
- ٢٥ - انظر التعبير الفني في القرآن ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، والفاصلة في القرآن الكريم ص ١٣٩ .
- ٢٦ - انظر الإيضاح ، ج ٤ ص ٩٩ ، وانظر جواهر البلاغة ص ٤٠٥ .
- ٢٧ - انظر الإيضاح ، ج ٤ ص ١٠٠ .

المراجع :

- ١ - الإيضاح . الخطيب القزويني . ضمن طبعة بغية الإيضاح . مكتبة الآداب - القاهرة .
- ٢ - البحر المحيط . أبو حيان محمد بن يوسف . ط ١ ، القاهرة .
- ٣ - البديع . عبد الله بن المعتز . ت . د . محمد عبد المنعم خفاجي . دار الجيل - بيروت .
- ٤ - بغية الإيضاح . عبد المتعال الصعيدي . مكتبة الآداب . القاهرة .
- ٥ - البلاغة العربية في ثوبها الجديد - علم البديع - ج ٣ - ط ٢ - دار العلم للملايين .
- ٦ - تفسير أبي السعود بن محمد الحنفي . ج ١ - ت . عبد القادر أحمد عطا . مكتبة الرياض الحديثة .
- ٧ - تفسير التحرير والتنوير . محمد الطاهر بن عاشور - ج ١ - الدار التونسية للنشر . ط ١٩٨٤ م .

- ٨ - تفسير سورتي الفاتحة والبقرة . د . محمد سيد طنطاوي ، ط ١٣٩٧ هـ .
- ٩ - تفسير القرآن العظيم . ابن كثير . ج ٤ - دار المعرفة - بيروت .
- ١٠ - التعبير الفني في القرآن . د . بكري شيخ أمين - دار الشروق - ط ٣ .
- ١١ - جواهر البلاغة - أحمد الهاشمي . دار الفكر .
- ١٢ - علم البديع - د - عبد العزيز عتيق - دار النهضة العربية - بيروت .
- ١٣ - علم البديع - القسم الثاني - د . بسيوني عبد الفتاح فيود - ط ١ - ١٤٠٨ هـ .
- ١٤ - علوم البلاغة - أحمد مصطفى المراغي - دار القلم - بيروت .
- ١٥ - الفاصلة في القرآن - محمد الحسناوي . ط ٢ - المكتب الإسلامي - بيروت .
- ١٦ - فتح القدير . محمد بن علي الشوكاني . ج ٤ . دار الفكر . ط ١٤٠٣ هـ .
- ١٧ - في ظلال القرآن - سيد قطب - ط ١٤٠٢ هـ . دار الشروق .
- ١٨ - الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل . جار الله الزمخشري . ج ١ - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١ - ١٤١٥ هـ .
- ١٩ - مختار الصحاح . محمد بن أبي بكر الرازي - طبعة ١٣٩٠ هـ - مكتبة نهضة مصر .
- ٢٠ - من بلاغة القرآن - د . . أحمد أحمد بدوي - ط ٢ - مكتبة نهضة مصر .
- ٢١ - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - البقاعي .